نابوليون بونابرت وفلسطين واليهود

محمد حافظ يعقوب

فرضيتان ينطلق منهما معظم الدارسين لتاريخ الصهيونية: الاولى بدأت مع مؤتمر بال في سويسرا ١٨٩٧، ومن هناك بدأ تاريخ آخر في حياة اليهود؛ والثانية هي ان المهدات الى الصهيونية تكمن، اساساً، في ظروف اليهود؛ باختصار، من الوعد التوراتي والنبوءة التوراتية، ومن الدين اليهودي الذي حافظ على اليهودية حيّة، ومن الاضطهاد الذي مارسته الحكومات والشعوب، على مر العصور، ضد اليهود، والذي عزّز بذلك اصرارهم على مشروعهم في استيطان فلسطين.

هدفنا، هنا، هو معالجة نقطة محدودة، لا تكشف التاريخ الصهيوني ولا تفسره، غير أنها تلقي نظرة على بعض هذا التاريخ. فاذا كان المشروع صعد مع صعود الامبريالية، مع هزيمة الدولة العثمانية وتفكيكها واحتلال اراضيها وتقاسم الدول الاوروبية لممتلكاتها، فان الصراع من اجل حل المسألة الشرقية، حلاً اوروبياً امبريالياً، بدأ قبل ذلك التاريخ بزمن طويل.

واذا كان من الممكن تقسيم تاريخ المسألة الشرقية الى مرحلتين كبيرتين: الاولى مرحلة الصعود العثماني وما قابله من تراجع عربي تجاه زحف جيوش السلطان العثماني في اعماق القارة، حيث تخللت هذه المرحلة مواقف اوروبية تميّزت بالسعي الى ارضاء العثمانيين (مثلاً: مواقف ملوك فرنسا، امراء بولونيا، الخ)، الذين كانوا يتدخلون، احياناً، لصالح هذا الطرف او ذاك من الاطراف المتصارعة داخل اوروبا؛ اما المرحلة الثانية، فتلت مرحلة قصيرة من التوازن الحرج الذي اعقب توقف العثمانيين عند بلغراد ونشوء الحلف المقدس بقيادة البابوية. في هذه المرحلة، انتقلت اوروبا الى الهجوم؛ صار العثمانيون في موقف دفاعي؛ ومنذ مطالع القرن الماضي، بدأ تراجعهم يزداد ويتسارع؛ ومنذ ذلك الوقت، اخذت المشاريع والمخططات الاوروبية تصبح اكثر جدية مع تزايد وضوح امكان تنفيذها. لقد دخلت المسألة الشرقية، منذئذٍ، منعطفاً. صار واضحاً في اذهان الساسة الاوروبيين، آنذاك، انه يجب حسم المسألة، اي انهاء القضية بأسرها: الغاء الدولة العثمانية، والتصرف بممتلكاتها من الاراضي والثروات والرعايا. ومنذ ذلك التاريخ، اتخذت قضية فلسطين بعداً جديداً.

ولنقل، تعود جذور المشروع الصهيوني الى التصور الغربي لحل المسألة الشرقية. وتحتل الحملة الفرنسية، بقيادة نابوليون بونابرت، مكاناً رائداً في هذا السياق.

قلب العالم، قَدَرُ العالم

شكل الشرق، باتساعه وبخيراته وبملايين سكانه، حلماً شهياً للاوروبيين الكبار. فبمقدار ما شكل مخرجاً لازمات القارة الاوروبية وحروبها التي لا تنتهي، شكل، في الوقت عينه، حلاً لازماتها الاجتماعية. تجدر الاشارة، هنا، الى ان ثمة نمطاً او مدرسة اوروبية في التفكير لم تنشأ في العصور الحديثة فقط. فالخروج من اوروبا هو خروج من شرنقتها؛ فهي صغيرة، وفقيرة، ومليئة بالقوى